﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾

[الأحزاب: 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

خصوصيّةُ أمّهاتِ المؤمنين تناسبُ مقامهنّ الكريم

لَمّا ذَكَرَ ﷻ في الآيتين السّابقتين أنَّ عذابَ نساءِ النّبي ﷺ ضِعْفُ عَذابِ غيرِهِنَّ، وأجْرَهُنَّ مِثْلا أجْرِ غَيرِهِنَّ؛ صِرْنَ كالحَرائِرِ بِالنِّسْبَةِ إلَى الإماءِ، بما يقرّرُ خصوصيّةً لهنّ وعليهنّ تناسبُ مقامهنّ الكريم، ومكانهنّ من رسولِ اللّه المختار، فَقالَ: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[1].

فضيلةُ أمّهاتِ المؤمنينَ على سائرِ النِّساء إشارةً وتصريحًا

لمّا أشارَ سبحانه إلى أنّ نساءَ النبيّ ﷺ أشرفُ نساءِ العالمين بتضعيف ثوابهنَّ وبإكرامهنّ زيادةً على ذلك بالرّزق الكريم الذي لا نقصَ فيه ولا كَدَرَ، وهو نعيمُ الجنّة؛ أعقبَ ذلك ببيانِ فضيلتهنَّ على سائرِ النّساء تصريحًا فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَخۡضَعۡنَ﴾: (خضع) أصلٌ يدلُّ على تَطامُنٍ في الشَّيْءِ[3]، والخضوعُ هو الذُّلُّ والتواضعُ واللّين والانْقيادُ والمُطاوعةُ، وخضعَ الرجل إذا لانَ كلامه، والخُضَّع: اللَّواتي قَدْ خَضَعْن بِالقَوْلِ ومِلْن؛ يقال: الرَّجُلُ يُخاضِع المرأةَ وهيَ تُخاضِعُه: إذا خَضعَ لَها بِكَلامِهِ وخضَعَتْ لَهُ ويَطْمع فيها[4]، ومعنى ﴿تَخۡضَعۡنَ﴾ في الآية موافقٌ لهذا المعنى اللُّغويِّ، أي: فلا تُجِبْنَ بقولٍ خاضعٍ ليّنٍ، رقيقٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167.
(2) صديق خان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 11/ 80.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خضع).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خضع).

متفكّكٍ، أي: إذا استَقْبلتُنَّ أحدًا من الرِّجال فلا تُلِنَّ الكلام، ولا تُرقّقْنَه فيما يبتغيه أهلُ الفاحشة منكنّ[1].

2) ﴿فَيَطْمَعَ﴾: (طمع) يَدُلُّ في أصله عَلَى رَجاءٍ في القَلْبِ قَويٍّ لِلشَّيْءِ، وهو خلافُ اليأسِ، وطَمِعَ فيه: حرَصَ عليه ورجاهُ[2]، وهو النّزوعُ إلى الشّيء؛ لأجل شَهوةٍ في النّفس[3]، فهو عبارةٌ عن شِدَّةِ التَّعلُّقِ بالشَّيءِ باطنًا، والإلحاحِ في ابتغائه ظاهرًا، والمَطْمَعَةُ: ما طَمِعْتَ من أجله، يُقال: إنَّ قولَ المُخاضَعَةِ من المَرأةِ لَمَطْمَعَةٌ في الفَسادِ، أي: مِمّا يُطْمِعُ ذا الرّيبَةِ فيها[4]، والمعنى المحوريُّ للطَّمعِ هو محاولةُ الإطباقِ على الشيء وضمّه مع تهيّؤٍ يقوّي الرّجاءَ في ذلك، ومن هذا التهيّؤ شدةُ شهوةِ النّفس لضمّ الشيء؛ لأنَّها تهيّجُ وتهيّئ وتيسُّر ذلك[5]، ومعنى الطَّمع هنا: موافقٌ للمعنى اللغوي.

3) ﴿مَرَضٌ﴾: (مرض) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى ما يَخْرُجُ بِهِ الإنْسانُ عَنْ حَدِّ الصِّحَّةِ في أيِّ شَيْءٍ كان[6]، وهو ضِدُّ الصِّحَّة، وهوَ العلَّةُ تكون في البدنِ والعقل والقلب، فهو خروجٌ عن اعتدالِ المزاج الصحيح الخاصِّ بالإنسانِ، وذلك ضربان: مَرَضٌ جسميٌّ، والآخرُ عبارةٌ عن الرَّذائلِ الكائنة في القلب كالجهلِ، والجُبْنِ، والبُخْلِ، والنِّفاقِ، وغيرِها من الرَّذائلِ الخُلُقيَّةِ، أي: المكتسَبة بالأفعال[7]، ويُطلق على الشَّكِّ والنِّفاقِ[8]، ويُطْلَقُ على الفُجور[9]، ويَرِدُ المرضُ مرادًا به الظُّلْمَة، ثُمَّ يُسْتَعارُ هذا الأخيرُ لِسَوادِ القَلْبِ بالمَعْصيَة[10]، والمراد بالمرض هنا مرضٌ في القلب من ريبةٍ وفجورٍ ونفاقٍ، أو فتورٍ عما أمرَ به اللّهُ أو نهى عنه، وتهاونٍ بإتيانِ الفواحش[11].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 257، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 5.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (طمع).
(3) الرّاغب، المفردات: (طمع).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (طمع).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طمع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرض).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طمع).
(8) الأنباريّ، الزّاهر: 1/ 476.
(9) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 546.
(10) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (مرض).
(11) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 546، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 493، وابن جرير، جامع البيان: 20/ 258، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 5.

4) ﴿مَّعۡرُوفٗا﴾: (عرف) أصلٌ يدُلُّ على السُّكون والطُّمأنينة، ومنه المَعرِفَةُ والعِرفانُ، وقولهم هذا أمرٌ معروفٌ؛ لأنَّ مَن أنكر شيئًا تَوَحَّشَ منه، ونَبا عنه، ومنه العَرْفُ: وهي الرّائحةُ الطَّيِّبةُ؛ لأنَّ النَّفسَ تَسكُنُ إليها، والعُرفُ: المَعروفُ، وسُمّيَ بذلك، لأنَّ النُّفوس تَسكُن إليه[1]، والمعروفُ: اسمٌ لكلِّ فعلٍ يُعرَفُ حُسنُه بالعقلِ أو الشّرع، فهو محبوبٌ لدى الجميع، أو هو ما تألفه الطّباع، ولا يستنكره الشّرعُ ولا العرفُ ولا المروءةُ، وهو خلافُ المُنكَر[2]، ومعنى ﴿مَّعۡرُوفٗا﴾ هنا: أي: جميلًا حسنًا معروفًا في الخير بعيدًا من الرّيبةِ غيرَ مطمعٍ لأحد[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كونهنّ أزواجًا لرسول الله تُرتِّبُ عليهنَّ واجباتٍ تناسبُ مكانَتَهنَّ

يأمرُ اللّهُ تعالى نساءَ النّبي ﷺ بآدابٍ، فيقولُ مخاطبهنّ: يا أزواجَ النَّبيِّ لَسْتُنَّ كأيِّ امرأةٍ مِن النِّساءِ في الفَضلِ والشَّرَفِ إنِ اتَّقَيْتُنَّ اللّهَ تعالى بفعلِ أوامرِه، واجتنابِ نَواهيه؛ فلا تُلِنَّ كلامَكُنَّ للرِّجالِ على وجهٍ فيه خُضوعٌ وانكسارٌ لهم، فيَطمَعَ مَن في قَلبِه مَرَضُ الشَّهوةِ المحَرَّمةِ، وإرادةُ الفُجورِ، وتكلَّمْنَ بكلامٍ مُباحٍ حَسَنٍ لا خُشونةَ فيه ولا بَذاءةَ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ تكرار الخطاب بـ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾:

اختصاصُ أمّهاتِ المؤمنين بالخطابِ وإعادتِه تأكيدٌ على فضيلتهنّ وما سيُلقى إليهنّ

أُعيدَ خِطابُ نِساءِ النَّبيِّ ﷺ مِن جانبِ ربِّهنَّ، وأُعيدَ نِداؤهنَّ مباشرةً ﷻ في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ للتّأكيد على فضيلتهنّ وعظيم قدرهنّ، والثناءِ عليهنّ حيث يخاطبهنّ من بين غيرهنّ من النّساء، كما خاطبَ مريمَ عليها السلام بقوله:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرف).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، والمعجم الوسيط: (عرف)، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 4/ 211.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 258، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 5.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 257.

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: 43][1]، ولإظهارِ كمال الاعتناءِ بنُصحِهنَّ[2]، وللاهتمامِ بهذا الخبَرِ الذي سيُلقى إليهنّ اهتمامًا يَخُصُّه[3]، فالغرضُ الذي يُساق من أجلِه الحديثُ هو بيانُ فضلهنّ، والحرصُ على مكانتهنّ وحمياتها من أيّ سوء.

دلالة النداء بـ(يا):

إيذانٌ بالبلاغِ وامتداده عبرَ العصور وحَثٌّ على الإصغاءِ لهذا البلاغ

تكرّرَ نِداءُ نساءِ النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بحرفِ النّداء (يا) الذي يُستعملُ في المنادى البعيد، مع أنّ المنادي قريبٌ سبحانَه؛ ليكونَ امتدادُ الصّوت مُؤذنًا بالبلاغ، وليمتدَّ الصَّوتُ بالبلاغِ على سائرِ العصور؛ لتتحلّى النّساءُ بهذه الأخلاق الفاضلة[4]، ولتنبيهِ أمّهاتِ المؤمنين كذلك بأنْ يُصْغينَ لِما يُنادى به عليهنَّ؛ لأهميّته بالنسبة لهنّ.

سرُّ إيثارِ لفظِ النّساءِ دونَ الزّوجات:

نساءُ النبيّ ﷺ قدوةٌ لنساءِ الأرض في الصّيانة والعفاف

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (نساء) في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ دونَ (زوجات النّبي أو أمّهات المؤمنين)؛ "ليكونَ هذا اللفظ وحْيًا إلى نساءِ الأرض، وإلى أنّهنّ - من وراء أمّهات المؤمنين - يتّجهُ إليهنّ الخطابُ مهذِّبًا وموجِّهًا، والدرسُ في هذه الآيات يشرحُ وسيلةَ الصّيانة والعفاف"[5].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾:

تفضيلُ أزواجِ النّبي ﷺ على جميعِ نساء الأمّة أو نساءِ الأرض

التّعريفُ في لفظ ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ للجنس[6]، فيشمل كلَّ نساءِ هذه الأمّة، أي تفضيلُ أزواجِ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 379.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 101.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 6، 21/ 318.
(4) حسن عثمان، دراسة النظم القرآني في سورة الأحزاب، ص: 224.
(5) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 276 - 277.
(6) الطِّيبي، فتوح الغيب: 12/ 416.

النبيّ ﷺ على جميعِ نساء هذه الأمة[1]، أو كلّ نساءِ العالمين، والمعنى: "لستنّ كجماعةٍ واحدةٍ من جماعات النّساء، أي: إذا تُقصّيتْ أمّةُ النساء جماعةً جماعة؛ لم توجدْ منهنّ جماعةٌ واحدةٌ تساويكنّ في الفضلِ والسابقة"[2].

نكتة إضافة النساء إلى النَّبيِّ:

أحكامٌ خاصّةٌ لنساءِ النّبيِّ تناسبُ مقامَ القدوةِ لسائرِ نساءِ المؤمنين

نادى البيانُ القرآنيُّ أمّهاتِ المؤمنينَ بوصفِ نساءِ النبيّ ﷺ، أي: بالإضافة إليه؛ لأنَّها التي يدورُ عليها ما يردُ عليهنَّ من الأحكام[3]، وليعْلَمَنَ أنّ ما سيُلْقى إليهنَّ خبرٌ يناسبُ علوّ أقدارهنّ[4]، أي: لقدْ أعطاكنّ اللّهُ تعالى مِنَ الفضل ومن سموِّ المنزلةِ ما لم يُعطِ غَيركُنَّ، فأنتنَّ في مكانِ القدوةِ لسائرِ النّساء، وهذا الفضْلُ كائنٌ لَكُنَّ إنِ اتَّقيْتُنَّ اللّهَ تعالى، وصُنْتُنَّ أنفسَكنَّ عنْ كلِّ ما نهاكُنَّ سبحانه عنه[5].

علّة النفي بـ(ليس):

نفيُ ما توهّمَ من مساواةِ أمّهات المؤمنين لسائرِ النّساء

نفى البيانُ القرآنيُّ مساواةَ جماعةِ نساءِ النبيّ ﷺ لكلّ جماعاتِ النّساء بـ(ليس) دون (ما) أو (لا) في قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾؛ لكون (ليس) تُستعملُ لِما يُتوهّمُ وقوعه، وبذلك تكون أنسبَ للمقام؛ لأنّ أمّهاتُ المؤمنين لمّا طالَبْنَ النَّبيَّ ﷺ بزيادةِ النّفقة، وأنْ يكون لهنّ مثلُ سائرِ النّساء؛ قد تَوَهَّمْنَ أنّهنّ مثلُ سائرِ النساء، فأزالَ القرآنُ هذا الوهمَ من الفهم، وعلّمهنّ أنّهنّ لسْنَ كأحدٍ من النساء، وأنّ لهنّ خصوصيّةً ليست لبقيّة النساء، والمعنى: "فيكنَّ غيرَ ذلكَ أمرٌ لا يوجدُ في غَيْرِكُنَّ، وهو كَونُكُنَّ أمّهاتِ جميع المؤمنين، وزوجاتِ خيرِ المرسلين، وكما أنّ محمدًا ﷺ ليس كأحدٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 7.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 536.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 101.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 318.
(5) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 204.

من الرجال، كما قال ﷺ: «لسْتُ كأحَدِكُم»[1]، كذلك قرائبُه اللاتي يشْرُفْنَ بِهِ، وبين الزّوجين نوعٌ من الكفاءة"[2].

وجه التوكيد بالنون الثقيلة:

تأكيدُ أفضليّة أمّهات المؤمنين ومسؤوليَّتهنّ ودورهنّ في المجتمع الإسلامي

استخدامُ النّون الثقيلة ﴿لَسْتُنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ يفيدُ التوكيدَ القويَّ لنفي مشابهةِ أمّهات المؤمنين بأحدٍ من النّساء، ويعزّزُ قوّةَ هذا المعنى؛ لأنّ النّون الثقيلة تُستخدمُ في التّعبير عن الجزمِ والقطع، ممّا يُظهر أنّ الكلامَ ليس مجرّد رأيٍ أو احتمال، بل هو حقيقةٌ مؤكّدةٌ، كما أنّ التّعبيرَ بها يشيرُ إلى أهميّة هذه الرّسالة الموجّهة إليهنّ، ويُظهرُ الخصوصيّة والتمييز لنساء النّبي ﷺ، وأنّ لهنّ مكانةً خاصّةً ومتميّزة، ممّا يعكسُ عظمةَ دورهنّ في المجتمع الإسلامي، ويعزّزُ من شعورهنّ بالمسؤوليّة.

بلاغة نفي التّشبيه:

نَفْيُ المُشابَهةِ في قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يُرادُ به نَفْيُ المُساواةِ، مُكنًّى به عن الأفضليَّةِ على غيرِهنَّ، فالمعنى: أنتنّ أفضلُ النّساء، وسببُ ذلك أنّهنّ اتّصلنَ بالنبيّ ﷺ اتّصالًا أقربَ من كلِّ اتّصال، وصرنّ أنيساته وملازمات شؤونه، فيخْتصِصْنَ باطّلاع ما لم يطّلع عليه غيرُهنّ من أحواله وخلقه في المَنْشطِ والمَكْرَه، ويتخلّقنَ بخُلُقِهِ أكثر ممّا يقتبس منه غيرهنّ، ولأنّ إقباله عليهن إقبالٌ خاصٌّ، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «حُبِّبَ إلَيَّ النِّساءُ والطّيبُ»[3]، وقال تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: 26][4]، والغرضُ من ذلك أنْ يبدأ بإشعارِ نفوسهنّ بعظيم مكانهنّ، ورفيعِ مقامهنّ، وفضلهنّ على النّساء كافّة، وتفرُّدِهنّ

نَفْيُ مساواةٍ مُكنًّى به عن أفضليَّةٍ تستوجبُ القيامَ بحقّها

(1) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد، رقم: (4752).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167.
(3) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: (12293) و(13057).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 22.

بذلك المكان بين نساء العالمين، على أنْ يوفّينَ هذا المكان حَقَّه، ويُقِمْنَ فيه بما يقتضيه.

سرُّ نفي لفظ (أحد) دون (واحد):

شمولُ النّفي بـ(أحد) أمّةَ النّساءِ جماعةً جماعةً

(أحدٌ): اسم بمعنى (واحد)، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ عبّر في قَولِه تعالى: ﴿كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بأحدٍ دون واحد فقال: ﴿كَأَحَدٍ﴾، ولم يقُلْ: (كواحدةٍ)؛ لأنَّ (الأحدَ) عامٌّ يَصلُحُ للواحِدِ والاثنينِ والجَمعِ، والمذكَّرِ والمؤنَّثِ[1]، وأكثرُ ما يُستعمل في سياق النَّفْي، فإذا وقعَ في سياقِ النّفي دلّ على نفي كلّ واحد من الجنس[2]، أي: استغراقِ جنسِ الموصوفين، القليلَ والكثيرَ على طريقِ الاجتماع والافتراق، فلو قلتَ: فلانٌ لا يقومُ له واحدٌ، جاز في المعنى أنْ يقومَ له اثنان أو ثلاثة فما فوقهما، وإذا قلتَ: فلانٌ لا يقومُ له أحدٌ: جزمتَ أنّه لا يقومُ له واحدٌ ولا اثنان فما فوقهما، ومعنى استعمال (أحد) هنا: "إذا تُقصّيتْ أمّة النّساء جماعةً جماعةً؛ لم توجدْ منهن جماعةٌ واحدةٌ تساويكنّ في الفضلِ والسابقة"[3]، فالأحدُ أكملُ من الواحد، وأبلغَ مع مقامِ أمّهاتِ المؤمنين، أي: ليس قدركنّ عندي مثلَ قَدْرِ الصالحات من النساء، أنتنّ أكرمُ عليّ، وأنا بكم أرحمُ، وثوابكنّ أعظمُ من ثواب جميع النّساء؛ لأنّكنّ أزواجُ حبيبي ﷺ[4]، ولو عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ (كواحدة) لما دلّ على هذا المعنى.

بلاغة التقييد بقوله ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾:

اشتراطُ التّقوى تنويهٌ بمكانةِ أمّهات المؤمنين وتَحريضٌ لهنّ على الازديادِ مِنها

التَّقييدُ بقولِه: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ ليس لِقَصدِ الاحترازِ عن ضِدِّ ذلك، وإنَّما هو إلْهابٌ وتَحريضٌ وتهييجٌ على الازديادِ مِن التَّقوى؛

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 536، والبغوي، معالم التنزيل: 3/ 635.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 6.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 536.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 232.

لنبذِ الدنيا والإقبالِ على كمالِ الطّاعة والتّقوى[1]، بجعلِ طلبِ الدنيا والميل إلى ما تميلُ إليه النساءُ - لبعده من مقامهن - بمنزلةِ الخروجِ من التّقوى[2]، أي جاء: اشتراطُ التّقوى من باب التّنويه بهنّ وبمنزلتهنّ العالية عند الله، والثناءِ عليهنّ ﷺ، ففضْلُهنَّ على نساءِ الأرض ثابتٌ مطلقٌ، ليس مشروطًا بالتّقوى.

رحمةُ اللهِ بأمّهاتِ المؤمنينَ بتكليفهنّ بما يُطِقْنَ

إيثار ﴿إِنِ﴾ دون (إذا):

آثَرَ النَّظمُ الحكيم استعمال ﴿إِنِ﴾ - التي تدخلُ على المشكوك - دون (إذا) - التي تدخل على المتيقّن - في قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾؛ إشارةً إلى رحمةِ الله بأمّهات المؤمنين؛ إذ لم يشرطْ فضلهنَّ على جميعِ النّساء بتحقّق دوامِ وزيادة التّقوى على وجه اليقين، بل يكفي أنْ يجْتهدنَ بصدقٍ في ذلك.

رفعةُ مقامِ أمّهات المؤمنين وفضلهنّ يقتضي دوامهنّ على التّقوى

دلالة فعل الشرط ﴿ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ وتوكيده:

فعلُ الشَّرْطِ ﴿ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ مستعملٌ في الدّلالةِ على الحثِّ والدَّوامِ؛ لاقتضاءِ المقام إيّاه؛ تهييجًا وإلهابًا[3]، أي: إنْ دُمْتُنَّ على التَّقوى؛ فإنَّ نساءَ النَّبيِّ ﷺ مُتَّقياتٌ مِن قَبْلُ[4]، ولبيانِ أنَّ فضيلتَهنَّ على نساء العالمين إنَّما تكونُ بالازدياد من التَّقوَى؛ لأنّ جواب الشرط دلَّ عليه ما قبل فعل الشرط[5]، والتقدير: إنِ اتَّقَيتُنّ فلَسْتُنّ كأحدٍ من النّساء[6]، وليستِ المسألةُ مجرّد قرابةٍ من النبيّ ﷺ، بل لا بدّ من القيامِ بحقّ هذه القرابة في ذاتِ أنفسكنّ، وفي استعمال نون التوكيد الثقيلة توكيدٌ لمعنى الحثّ والدّوام على التّقوى، وفي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 7.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 186.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 418.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 7.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 7.
(6) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 204.

الشرط وجوابه دلالةٌ على تفضيلِ أزواجِ النبيّ ﷺ على جميع نساء هذه الأمّة[1].

توجيه قوله ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ﴾:

رفعةُ قَدْرِ نساء النبيّ يتفرّعُ عنه إرشادُهنَّ تهييجًا إلى الابتعادِ عن الملاينة في القول

الأحسنُ أنْ يكون الوقفُ على ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾، وقوله: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ﴾ ابتداءُ تفريعٍ وليسَ هو جوابَ الشّرط، أي: فُرِّعَ على تَفضيلِهنَّ وتَرفيعِ قَدْرِهنَّ إرشادُهنَّ إلى دَقائقَ من الأخلاقِ قد تقَعُ الغَفلةُ عن مُراعاتِها؛ لِخَفاءِ الشُّعورِ بآثارِها؛ ولأنَّها ذرائعُ خَفيَّةٌ نادرةٌ تُفْضي إلى ما لا يَليقُ بحُرْمتِهنَّ في نُفوسِ بعضِ ممَّنِ اشتمَلَتْ عليه الأُمَّةُ، وفيها مُنافقوها، ومن ذلك هيئةُ الكلام[2]، وهذا الإرشادُ على سبيلِ التّهييجِ لهنّ، والإلْهابِ والتَّحريضِ على الابتعادِ عن التّخضّع والملاينة في القول.

منزلةُ نساءِ النبيّ السّامية عند الله ليس فيها غَناءٌ عن التّذكير والإثارة

ويجوز أنْ يكون قوله: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ﴾ جوابَ شرط، والمعنى: إنِ اتقيتنّ فلا تخضعنَ[3]، أي: الوقفُ على ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾، والابتداءُ بـ: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾، ومجيءُ الجملة الشرطيّة بعد الثناء البالغ في قوله: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ إشارةً في ذلك إلى أنّ منزلةَ أمّهات المؤمنين السّامية عند الله ليس فيها غَناءٌ عن التّذكير والإثارة؛ للاستمساكِ أكثر بمُثُلِ الخير، والازدياد منها، وملاحظة النّفس، وأخذها على الطريق القويم، وفيه قرعُ العصا لنساءِ الأرض، من جهة أنّ هذا الأسلوبَ الحاسمَ في النّهي عن التّخضّع والملاينة، وربطه بالتّقوى - قدْ ورد موجَّهًا إلى الطّاهرات العفيفات بعد بيانِ فضلهنّ على النّساء جميعًا، فماذا يكونُ الحال بالنسبةِ لغيرهنّ؟[4]، وفي ارتباطِ التّقوى بالنهي عن التّخضّع ومُلاينةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 7.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 8.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167.
(4) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 279 - 280.

الحـديث؛ إشـارةٌ إلـى أنّ مُلاينـةَ الحـديث بـين الرّجال والنّسـاء دليلٌ على أنّ مهابةَ الحقّ وجلالَ الدّين قدْ سقطَ من القلوب[1].

حذف مفعول ﴿ٱتَّقَيْتُنَّ﴾:

تـنـزيـهُ مـقـامِ أمّـهـاتِ المؤمنين والتلطّفُ بهنّ

حذَفَ النّظم الحكيم مفعول ﴿ٱتَّقَيْتُنَّ﴾، والتقدير: إنْ اتقيتنّ مخالفةَ حكمِ الله تعالى ورضا رسوله ﷺ؛ اختصارًا لدلالةِ ما قبله عليه[2]، وتنزيهًا لهنّ عن ذلك، وتلطّفًا بهنّ.

دلالة النهي عن الخضوع في القول:

النـهـيُ للتهييج والـتـذكـير؛ فأمّهات المؤمنين مـبـرّءاتٌ مـن التّخضّع بالقول

جاء النّهي عن الخضوعِ بالقول بعد الثناءِ على أمّهات المؤمنين بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ واردًا موردَ الإشارةِ والتهيّج؛ لأنّهنّ مُبرّآتٌ عن التّخضّع بالقول، ومُلاينة الحديث للغرباء[3]، أو واردًا موردَ الإرشادِ لهنّ، "فإنَّ النّاسَ مُتفاوِتونَ في لينِه، والنِّساءُ في كلامِهنَّ رِقَّةٌ طَبيعيَّةٌ، وقد يكونُ لِبَعضِهنَّ مِن اللَّطافةِ ولينِ النَّفْسِ ما إذا انضَمَّ إلى لينِها الجِبِلّيِّ، قَرُبَت هَيئتُه مِن هيئةِ التَّدلُّلِ؛ لِقِلَّةِ اعتيادِ مِثلِه إلّا في تلك الحالةِ، فإذا بَدا ذلك على بَعضِ النِّساءِ ظَنَّ بعضُ مَن يُشافِهُها مِن الرِّجالِ أنَّها تَتحبَّبُ إليه، فرُبَّما اجتَرَأتْ نفْسُه على الطَّمعِ في المُغازَلةِ، فبدَرَتْ منه بادِرةٌ تكونُ مُنافيةً لحُرْمةِ المرأةِ، بلْهَ أزواجَ النَّبيِّ ﷺ اللّاتي هنَّ أمَّهاتُ المؤمنينَ"[4].

ووراء هذه الإشارةِ والتّهييج أو الإرشاد لأمّهاتِ المؤمنين؛ نهيٌ مؤكّدٌ لنساءِ المسلمين عن الخضوعِ والمُلاينة[5]، وتحذيرٌ ممّا هو زائدٌ على المعتاد في كلامِ النّساء من الرقّة، وذلك ترخيم الصوت، أي:

(1) الجوهرة، من بلاغة الخطاب الموجه إلى أمهات المؤمنين، ص: 322.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 186.
(3) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 279 - 280.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 8.
(5) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 279 - 280.

ليكنّ كلامكنّ جزلًا[1]، ودعوةٌ للمرأةِ للاحترازِ من كلِّ ما دعا إلى شهوتها، والفتنةِ عليها[2].

بلاغة المجاز في لفظ (الخضوع):

الخضوعُ حقيقتُه التذلّلُ، وأُطلق في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ على الرِّقّةِ لمشابهتها التذلُّل[3]، والمعنى: "لا تُلِنَّ بالقولِ للرّجالِ ولا تُرَقِّقْنَّ الكلام"[4]، وفي التّعبير بالمجاز مبالغةٌ في التّنفير من هذا الفعل، مع العلمِ أنّ النّهيَ هنا هو إرشادٌ على سبيل التّهييج.

المبالغةُ من التنفيرِ من رقّة الكلام أمامَ الأجانبِ إرشادٌ على سبيل التّهييج

معنى الباء في ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾ وسرّ إيثارها على همزة التعدية:

الباءُ في قوله: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ للتّعديةِ بمَنزلةِ هَمزةِ التّعدية، أي: لا تُخضِعْنَ القولَ، أي: تَجعَلْنَه خاضعًا ذليلًا، أي: رقيقًا مُتفكِّكًا، ومَوقعُ الباءِ هنا أحسَنُ من مَوقعِ هَمزةِ التّعدية؛ لأنَّ باءَ التّعديةِ جاءتْ من باءِ المُصاحَبة؛ فأصْلُ قولِك: ذهَبْتُ بزَيدٍ، أنَّك ذهبْتَ مُصاحبًا له، فأنتَ أذْهَبْتَه معك، ثمَّ تُوسيَ معنى المُصاحَبةِ في نَحوِ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17]، فلمّا كان التَّفكُّكُ والتَّزيينُ للقولِ يَتبَعُ تَفكُّكَ القائلِ، أُسنِدَ الخُضوعُ إليهنَّ في صورةٍ، وأُفيدَت التَّعديةُ بالباءِ[5]، وفي هذا مبالغةٌ في الحذرِ مِنْ ترقيقِ القولِ والمُلاينةِ فيه مع الغُرَباء، ويجوزُ أنْ تكونَ الباءُ بمعنى (في)، أي: لا يكُنْ مِنكنَّ لينٌ في القولِ[6].

المبالغةُ في الحذرِ مِنْ ترقيقِ القولِ والمُلاينةِ فيه مع الغُرَباء

دلالة تعريف لفظ ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾:

مادة القول تشمل كل أنواع التّعبير اللفظي، وفيه دلالة على التّصريح والمجاهرة، لكنّ لامَ تعريفِ لفظِ ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾ في قوله

هيئةُ القولِ المنهيُّ عنها هي ترقيقُ الكلام بحضرةِ الرجال الغرباء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.
(2) القصّاب، النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام: 3/ 653.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 8.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 348.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 8.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 8.

تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ عهديّة، معهودها ذهنيٌّ؛ إذ هيئةُ القولِ المنهيّ عنها هي ترقيقُ الكلام بحضرةِ الرّجال الغرباء، لا كلَّ هيئةٍ للقولِ، وهذا ما يدلُّ عليه الاحتراسُ في السّياق في قوله تعالى: ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

معنى (الفاء) في ﴿فَيَطۡمَعَ﴾:

فاءُ ﴿فَيَطۡمَعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ﴾ سببيّةٌ[1]، تدلُّ على أنَّ ما قبلها سببٌ لِما بعدها، وقد انتصبَ ﴿فَيَطۡمَعَ﴾ في جَوابِ النَّهْيِ بَعْدَ الفاءِ؛ لِأَنَّ المَنْهِيَّ عَنْهُ – وهو الرّقةُ في القول – سَبَبٌ في هَذا الطَّمَعِ[2].

الرقّةُ في القول والملاينةُ فيه سَبَبٌ في طمَعِ مرضى القلوب

سر التّعبير بلفظ ﴿فَيَطۡمَعَ﴾ مادةً وصيغةً:

عبّرَ البيانُ الحكيمُ بلفظ الطّمع دون غيره من الألفاظ كالرّجاء مثلًا، في قوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾؛ للدّلالة على أنّ أمنيةَ الذي في قلبه مرضٌ لا سببَ لها في الحقيقة؛ إذ الطمعُ يكون من غيرِ سَبَبٍ يَدْعو اليه[3]، فهو نزوعٌ إلى الشيء لأجلِ شهوةٍ في النّفس[4]، ولأنَّ اللّينَ في كلامِ النّساءِ خُلُقٌ لهنّ لا تَكلُّفَ فيه، فأُريدَ من نساءِ النبيّ ﷺ التكلّفُ بالإتيان بضدّه[5]، وأمّا التعبيرُ بالرّجاء فلا يناسبُ المقام هنا؛ لأنّ الرجاء هو أملٌ في الخيرِ لا في الشرّ، ولا يكونُ إلا عن سببٍ يدعو إليه من كَرَم المَرجوّ[6]، ولكون الطمعِ لا سببَ في الحقيقة يدعو إليه إلا شهوةٌ في نفسِ صاحبه، فإنّ ذلك يشيرُ إلى أنّ الذي في قلبه مرضٌ لن ينالَ ما يطمعُ فيه، وفي هذا كلّه تنزيهٌ لأمّهات المؤمنين.

تنزيهُ مقامِ أمّهات المؤمنين عن سببيّةِ طمعِ مرضى القلوبِ بهنّ وحصولِ مرادِ أصحابها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 344.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 245.
(4) الراغب، المفردات: (طمع).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 344.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 244.

وقد جاء بصيغة المضارع زيادةً في تحذيرِ أمّهات المؤمنين؛ لأنّ طمعَ من في قلبه ريبةٌ وفجورٌ وشهوةٌ مستمرٌّ لا ينقطع.

علّة حذف متعلّق الطمع:

تَـنـزيـهُ شَـأْنِ نِساءِ النَّبيِّ ﷺ والتلطّفُ بهنّ

حُذِف مُتعلَّقُ ﴿فَيَطۡمَعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾؛ إذ التقدير: فيطمعَ فيكُنَّ؛ وعلّة الحذف هي تَنزُّيهُ وتَعظيمُ شَأْنِ نِساءِ النَّبيِّ ﷺ مع قيامِ القَرينةِ[1]، وتلطّفُ البيانِ الحكيمِ بهنّ.

نكتة التّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِي﴾:

في الموصولية إيذانٌ بعلّةِ طمعِ الفاجر، وهي مرضُ قلبه

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ للإيماءِ إلى علّة طمعِ الفاجر، وهي مرضُ قلبه، أي: فجوره، وللدّلالة على العموم؛ فيشمل كلّ من خَبُثَ قلبه وغلَبَتْه الشهوة المحرّمة والنّفاق، وفيه كذلك لفتٌ للانتباه من خلالِ الإبهام؛ ليقعَ بعده التفصيلُ فيتمكّن معناه من الذّهن، وفي هذا مزيدُ تحذيرٍ لأمّهاتِ المؤمنين.

معنى حرف الجر ﴿فِي﴾:

تحذيرُ أمّهات المؤمنين ممّن تأصّلَ الشكُّ والريبةُ والفجورُ في قلبه

عبّرَ البيانُ القرآنيّ بحرفَ الجرّ ﴿فِي﴾ الذي يفيدُ الظَّرْفيَّة في قوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾؛ للدّلالةِ على شدّةِ سوءِ مَنْ حذرَ اللّهُ أمّهاتِ المؤمنين منه؛ إذ المرضُ من الريبةِ والشكّ وسوءِ الظنّ وغلبةِ الشهوةِ المحرّمة والفجور، ليس أمرًا طارئًا على قلبه، وإنّما هو متأصّلٌ متوغّلٌ متمكّنٌ في قلبه، ومِنْ ثَمّ زيادةُ تحذيرِ أمّهات المؤمنين من هؤلاء الناس.

نكتة تقديم الجارّ والمجرور ﴿فِي قَلۡبِهِۦ﴾:

قلوبٌ تأصّلَ فيها الفجورُ لا بدّ من الحذرِ منها

الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ متعلّقان بمحذوفٍ خبرٍ مقدَّم، و﴿مَرَضٞ﴾ مبتدأٌ مؤخّر[2]، وقد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 10.

قُدّم متعلّق الخبر ﴿فِي قَلْبِهِۦ﴾؛ للاهتمام؛ إذ القلوبُ محلُّ الخبثِ والفجورِ والريبةِ والشّكِّ وسوءِ الظنّ، فلمّا كانت محلًّا لهذا كلّه؛ أضحت محطّ الاهتمام، ولبيانِ أنّ ما تحملُهُ قلوبُهم من خبثٍ وريبةٍ وفجور ليس أمرًا طارئًا بل هي متأصّلة متوغّلة فيهم.

وجه نسبة المرض الى القلب دون غيره:

الجوارحُ تابعةٌ للقلبِ؛ تَسْلَمُ بسلامته وتَفْسُد بفساده

نسبَ البيانُ الإلهيُّ المرضَ إلى القلب في قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾؛ لأنّه محلّ ما يعنيه لفظ (المرض) من الفجورِ والرّيبة وسوء الظنّ؛ إذ هو محلّ المعاني والأفكار والمعتقدات، ولأنّ الجوارحَ تابعةٌ للقلبِ، فتَسْلَمُ بسلامته، وتَفْسُد بفساده[1]؛ إذ الفسادُ بالجوارح لا يكون إلا عن قصدٍ فاسدٍ بالقلب، قال رسول الله ﷺ: «ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهيَ القَلْبُ»[2].

دلالة تنكير المرض:

أمـراضُ القلوب كثيرةٌ وخطيرةٌ في أثرها وفسادها الـــفـــرديّ والمجتمعي

نكّر البيانُ القُرآنيُّ لفظَ المرض في قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾؛ لإفادة العموم، ليشمل كلّ مرضٍ يصيب القلب؛ كالفسْق[3] أو النِّفاق، أو ضَعْفِ الإيمان ممّن كانوا من الأعراب، أو سوء الظنّ[4]، أو الفساد والرّيبة[5]، أو شهوة الزنى والفجور[6]، ولو عبّر بأحدها لاقتصرَ عليه، ولَما أفادَ المراد، وكذلك في التّنكيرِ إفادةُ التّهويل؛ فهو مرضٌ خطيرٌ في أثره وفسادِهِ الفرديّ والمجتمعيّ، فكان لابدّ من التّحذير منه.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 20/ 248.
(2) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، الحديث رقم: (52).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 344.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 399.

بيان الاستعارة في لفظ ﴿مَرَضٌ﴾:

استعارةُ المرضِ لبيانِ اختلالِ الوازعِ الدينيّ والفجور وأنّه مؤدٍّ للهلاك

حقيقة لفظ (المرض) اختلالُ نظام المزاج البدنيّ من ضعفِ القوّة، فالمرضُ في اللغة ما يَخْرُجُ بِهِ الإنْسانُ عَنْ حَدِّ الصِّحَّةِ[1]، وهو في قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ مستعارٌ لاختلالِ الوازع الدينيّ، بجامعِ أنّ كلًّا منهما مؤدٍّ إلى الهلاك، أو مُسْتَعارٌ للفجور، أي: الميل إلَى الزنا؛ لأنّه يخرجُ النّفس عن الكَمالات، كما أنّ المرضَ الحقيقي يخرجُ البدنَ عن الاعتدال[2]، فمرضُ القلبِ مثل المنافقين، ومن كان في أوّل الإيمان من الأعراب ممّن لم ترسخْ فيه أخلاقُ الإسلام، وكذلك من تخلّقوا بسوءِ الظنّ فيرمونَ المُحْصَناتِ الغافلاتِ المؤمنات، وقضيّةُ إفكِ المنافقين على عائشة ﵂ وعن أبيها شاهدٌ لذلك[3].

بلاغة الاحتراس في ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾:

نفيُ توهّمِ عدمِ وجودِ الطّمعِ بأمّهاتِ المؤمنينَ مِنْ كلِّ النّاسِ

في قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ احتراسٌ عمّا قد يُقال: إنّهنَّ أمّهاتُ المؤمنين، والإنسانُ لا يطمعُ في أمّه، فأجاب: بأنّ الذي يقعُ منه الطّمعُ إنّما هو المنافق؛ لأنّ شهوته حاصلةٌ معه، وهو منزوعُ الخشيةِ والخوفِ من الله، ومع ذلك فإنّهنّ نُهينَ عمومًا سدًّا للذّريعة[4].

بلاغة الإطناب في قوله ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾:

إحاطةُ المعنى بالاستقصاء الذي يؤكّده في نفسِ المتلقّي

في قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ إطنابٌ؛ وذلك بالتفصيل بعد الإجمال، والغايةُ منه هي إحاطةُ المعنى بالاستقصاء الذي يؤكّده في نفسِ المتلقّي ويثبّته أقوى تثبيت.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرض).
(2) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 15/ 352.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.
(4) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ص: 1498.

بلاغة الاحتراس في عطف جملة الفاصلة:

نفيُ توهّمِ أمورٍ تخالفُ دورَ نساءِ النبيّ ووظيفتهنّ في التّبليغ عنه

عَطْفُ جملة الفاصلة ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ على قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ بمَنزلةِ الاحتراسِ؛ لئلّا يَحسَبْنَ أنَّ اللّهَ كلَّفَهُنَّ بخَفْضِ أصواتِهنَّ كحَديثِ السِّرارِ[1]، أو بإغلاظِ القَولِ أو بالقولِ المؤذي والمنكر لمن يُكلمهنّ، أو بالسكوت؛ فدفَعَ هذا بقَولِه: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[2]؛ لأنّهنّ زوجاتُ خاتمِ الأنبياء، ولهنّ وظيفة التّبليغ عنه ﷺ.

دلالة الأمر ﴿وَقُلْنَ﴾:

الأمرُ بالقولِ المعروف واجبٌ على أمّهات المؤمنين عند الحاجة

أمْرُ اللّهِ لأمّهات المؤمنين بالقولِ المعروف في هيئة الكلام وفي مضمونه بما يتضمّنه من دلالة على المجاهرة والتّصريح في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ هو أمرٌ للوجوبِ عند الحاجة إلى ذلك، أي: هو المأمورُ به لا غيره[3]، وهذا الأمرُ مفهومٌ من النّهي المَذْكور؛ إذ النّهيُ عن الشيء يستلزمُ الأمرَ بضدّه، ولكمالِ الاهتمام ذُكر صريحًا؛ تقريرًا للنهي المَذْكور[4].

فائدة التعبير بالمصدر ﴿قَوْلًا﴾:

التأكيدُ على أنْ يكون قولُ نساءِ النبيّ قولًا معروفًا

صرّح البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿قَوْلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ على الرّغم من أنّه يُفهَم من السّياق أنّ الأمرَ بأنْ يقلنَ قولًا؛ إذ إنّه من مقتضى فعل الأمر ﴿وَقُلْنَ﴾؛ وذلك من باب التّوكيد، وليجريَ الأمرُ مجرى المثل في حياة المؤمنات، ولاسيما أنّ ﴿قَوْلًا﴾ جاءت نكرةً مفردةً تدلُّ على كلّ جنسٍ من أجناسِ القول دون استثناءِ شيء منه.

سرّ وصف القول بالمعروف منكّرًا:

المَعروفُ هو الَّذي يَألَفُه النّاسُ بحسَبِ العُرْفِ العامِّ، وقد قيّد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 363.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167.
(4) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 15/ 353.

البيانُ القرآنيُّ القولَ بصفةِ المعروفِ بصيغة النكرة في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾؛ لإفادة العموم، فالمعروفُ يشملُ هَيئةَ الكلامِ، وهي الَّتي سيقَ لها المَقامُ؛ إذ النّهيُ عن الشيء يستلزمُ الأمرَ بضدّه[1]، ويَشملُ كذلك مَدلولاته: ألّا يَنْتَهِرْنَ مَن يُكلِّمُهنَّ، أو يُسْمِعْنَه قولًا بذيئًا[2]، مِن بابِ: فلْيَقُلْ خيرًا أو ليَصْمُت[3]، ويشمل كذلك مضامينَهُ، فكما نهاهنّ من قبلُ عن النَّبرةِ اللَّيّنة واللهجةِ الخاضِعة، وأمرهنّ في هذه أنْ يكون حديثهنّ في أمورٍ معروفة غير منكرة؛ فإنّ موضوع الحديث قد يُطمع مثل لهجةِ الحديث؛ فلا ينبغي أنْ يكون بين المرأة والرجل الغريب لحنٌ ولا إيماءٌ، ولا هذرٌ ولا هزلٌ، ولا دعابةٌ ولا مزاحٌ، كي لا يكون مدخلًا إلى شيء آخر وراءه من قريبٍ أو من بعيد، كما أنّ في تنكيره تفخيمًا لهذا القول، وتعظيمًا لشأنه بأنْ يكون جميلًا حسنًا معروفًا في الخير بعيدًا من الريبةِ غير مُطْمِعٍ لأحد.

الأمـرُ بـأنْ يكون القـولُ معـروفًا في جميع جوانبه عظيمًا في شأنه

بلاغة التذييل في ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾:

جملةُ الفاصلة تذييلٌ[4]؛ وله موقعٌ جليلٌ، ومكانٌ شريف خطير؛ لأنّ المعنى يزدادُ به انشراحًا، والمقصدُ انفتاحًا، فهو إعادةُ الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهرَ لمن لم يفهمه، ويتوكّدَ عند من فهمه، وقد خرجَ هنا مخرجَ المثل السائر في حياة المؤمنات؛ ليحقّق ما قبل، "فلمّا نهاهنّ عن الاسترسالِ مع سجيةِ النساء في رخامةِ الصوت، أمرهنّ بضدّه فقال: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، أي يُعرف أنّه بعيدٌ عن محلّ الطَّمَع"[5].

الـنَّـهْـيُ عـن الـشيء يستلزمُ الأمرَ بضدّه

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 15/ 353.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 167.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 9.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 344.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخضوع واللّين والخنوع والإذعان:

المنهيُّ عنه القولُ اللَّيّن الذي فيه خضوعُ المرأةِ للرجل وانكسارها عنده لا مجرّد الكلام اللّيّن

الخضوعُ هو الذلُّ والتّواضع[1] واللّينُ والانْقيادُ والمُطاوعةُ، ويكون في الصوت والبَدَنِ، والخُضَّع اللَّواتي قَدْ خَضَعْن بِالقَوْلِ ومِلْن[2]، وأمّا اللينُ فهو ضدُّ الخشونة، وحقيقتُه في الأجسام ثم يستعملُ في المعاني[3] بمعنى السهولةِ والانقيادِ والإذعانِ، والتّنعّم والمعاملة بلُطْفٍ ورحمة[4]، وقد ناسبَ هنا التّعبير بالخضوع دون اللّين؛ لأنّ المنهيَّ عنه القولُ اللَّيّن الذي فيه خضوعُ المرأةِ للرّجل، وانكسارها عنده، والخاضعُ هو الذي يُطمَعُ فيه، بخلافِ من تكلّم كلامًا ليِّنًا، ليس فيه خضوعٌ، بل ربما صارَ فيه ترفّع وقهرٌ للخصم، فإنّ هذا لا يَطمعُ فيه خصمه، ولهذا مدحَ اللّه رسوله باللّين، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159] وقال لموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: 43 - 44][5].

وأمّا معنى الخنوع فأصْلُه يدلُّ على ذلٍّ وخضوعٍ وضَعَةٍ وفُجور، والخُنّع: لا يخضعون لهنَّ بالقول، بل يُغازِلونَهُنَّ[6]، والخَنْعةُ: الرّيبة والغدر، والخانِعُ: الَّذي يَضَع رأْسه للسَّوْءة يأْتي أمرًا قَبيحًا فَيَرْجِعُ عارُه عليه فيستَحْيي مِنْهُ ويُنَكِّس رأْسه[7]، وهذه المعاني لا تتناسبُ في الخطاب مع مقامِ أمّهات المؤمنين.

وأمّا الإذعانُ فأصله يَدُلُّ عَلَى الإصْحابِ والِانْقيادِ، والإسراعِ مع

(1) الزبيدي، تاج العروس: (حضع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (خشع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لين).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (لين).
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 663.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خنع).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (خنع).

الطّاعة، ويأتي بمعنى الخضوع والذلّ والإقرار والاعتراف[1]، وهذه المعاني لا تتناسبُ مع السياق في الآية.

الطمع والرجاء والأمل والتمنّي والطموح:

الطَّمْعُ أشدُّ من الرجاء؛ إذ الطمعُ في أصله رَجاءٌ في القَلْبِ قَويٌّ لِلشَّيْءِ وحرصٌ عليه، فهو لا يحدثُ إلّا عن قوّةِ رغبةٍ، وشدّةِ إرادة[2]، ويكونُ من غير سبَبٍ يدعو إليه، فإذا طَمِعتَ في الشَّيءِ، فكأنّكَ حدّثتَ نفسَك به من غير أن يكون هُناك سببٌ يدعو إليه، فهو نُزوعٌ إلى الشّيء؛ لأجل شَهوة في النّفس[3].

الطمعُ رغبةٌ قويةٌ لأجلِ شهوةٍ في النّفس تتناسبُ مع مرضِ القلب

وأمّا الرجاء فهو الأملُ في الخير، ولا يكونُ الرَّجاءُ إلّا عن سببٍ يدعو إليه مِن كَرَم المَرجوّ، ولهذا ذُمّ الطّمع، ولم يُذَمّ الرَّجاء[4]، والفرقُ بين الطمعِ والأمل؛ أنّ الطمعَ توقُّعُ حصولِ القريب ممّا تريده النّفس، وأكثر ما يُستَعمَلُ فيما يَقرُبُ حصولُهُ، في حين أنّ الأملُ هو توقُّعُ حُصولِ الشّيء، وأكثرُ ما يُستعملُ فيما يُستَبعَدُ حُصولُه[5]، والرجاءُ هو بين الأمل والطمع، فإن الرّاجي قد يخاف أنْ لا يحصل مأموله، فالترجّي: ارتقابُ شَيْء لا وثوقَ بحصوله، والرّاجي ليس مُطمَئِنًّا مُتَيَقّنًا بحصول ما يرجو، بل تُخالِجُهُ درجةٌ من تَوَقُّعِ الحرمان، ولهذا يُستعمل بمعنى الخوف[6].

وأمّا التّمنّي فهو محبَّةُ حُصول الشَّيْء، سَواءٌ كانَ ينتظره ويترقّب حُصوله أو لا، فهو تقديرُ شيء في النّفس وتصويرُه فيها، وتَشَهّي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذقن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (طمع)، والهرري، حدائق الروح والريحان: 2/ 49.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 245، والرّاغب، المفردات: (طمع).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 244 - 245.
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (طمع)، والمناويّ، التّوقيف، ص: 62.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 73، والفيوميّ، المصباح المنير، والكفوي، الكليات، ص: 468، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رجو).

حُصولِ ما يرغب فيه، وذلك يكون عن تخمينٍ وظنّ، ويكون في البعيد، وأكثر التّمنّي تصوّرُ ما لا حقيقة له[1]، فيمكن أنْ يقع في المستحيلات عكس الترجّي فلا يقع إلا في الممكن، وغالبُ التّمنّي كذبٌ وتصوّر ما لا حقيقة له[2].

وأمّا الطُّموحُ فهو التطلّعُ إلى تحقيقِ هدفٍ بعيد[3]، فأصلُ (طمح) يدلّ على علوّوارتفاعٍ في شيء[4]، والطامحُ: الرّافعُ بصَرَه إلى الشيء[5].

فكان استعمالُ لفظ الطّمع في الآية دون غيره؛ لمناسبته للسياق ولمرض القلب؛ إذ السياق في النّهي عن الخضوع في القول؛ لئلّا تنزَعَ نَفْسُ الرّجل الذي في قلبه مرض لتحقيق غايةٍ من المرأة لأجلِ شَهوة في نفسه.

(1) الكفوي، الكليات، ص: 468، والمناوي، التوقيف، ص: 109، والزبيدي، تاج العروس: (مني).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مني).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (طمح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طمح).
(5) المناوي، التوقيف، ص: 235.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والأربعون،
سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 45 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-98-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 45 : المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-98-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9766833 بتاريخ 2025/01/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»